(١٥) ستيفن كرين : ماجى : فتاة الشوارع

بقلم : إدوين هـ . كادى

ولد ستيفن كرين عام ١٨٧١ ، أى فى عام ميلاد ثيودور درايزر نفسه ، وفى العقد الذى ولد فيه نفسه كل من جيرترود ستاين وروبرت فروست وآبتون سنكلير وكارل ساندبرج ووالاس ستيفنز . ولعل الاختلاف الملحوظ بين كرين ومعاصريه يكمن فى أن نجمه بزغ مبكراً جدًّا ولمع بشدة ، لكنه خبا بالسرعة نفسها فقد بلغ الشهرة العالمية فى سن الخامسة والعشرين ومات فى سن الثامنة والعشرين أى فى عام ١٩٠٠ . ونحن ننظر إلى معاصريه نظرتنا إلى كتاب قرننا هذا ، فهم كتاب محدثون ومعاصرون لنا تقريبا . فقد عاش سنكلير حتى عام ١٩٦٩ . والملايين منا رأت أو سمعت فروست وساندبرج شخصيا أو فى التليفزيون . وإذا كان كرين قد قدر له أن يعيش إلى هذا المدى فربما كنا عرفناه بالقدر نفسه ، لذلك فهو رجل متفرد فى ربطه بين عصرين : الأخير فى القرن التاسع عشر والأول فى العصور الحديثة .

وكان أول كتاب لكرين هو « ماجى : فتاة الشوارع » ؛ ربط فيه ما بين النبض الأدبى للماضى وبين الاتجاهات التجريبية التى تنبأ بقدومها . إنه كتاب بمثابة علامة على الطريق . وعندما يعرف المرء كل هذه الظروف يندهش لإدراكه كم كان قليلا ما نعرفه فعلا عن مضمون « ماجى » والأسلوب الذى كتبت وروجعت واستقبلت به !

وعلى النقيض من معاصريه فلا شك فى أننا لن نعرف بالتأكيد قدراً عظيماً عن ستيفن كرين : فعلى سبيل المثال لدينا فى جامعة إنديانا تسعة أطنان من الأوراق التى تدور حول آبتون سنكلير. لكنه من المذهل أن نكتشف مالا يعرفه المرء بالضبط عن كرين ، وما لا يمكن الحصول عليه على الرغم من اهتمام الطلبة الذى يبدو جلياً عندما يسمعون أن مادة جديدة عن ستيفن كرين فى طريقها إلى الظهور ! وهذا على أية حال يجعلنا نغض الطرف عن قضيته التى نعرفها بالتأكيد فيما يختص « بماجى » . وكان هناك عدم اتفاق غريب فى التصريحات التى أدلى بها نقاد كرين بخصوص ما يمكن أن نجده فى « ماجى » .

فإذا نظرنا إلى الكتاب فسنجد أنه قصير بالفعل لا يزيد كثيراً على عشرين ألف كلمة . ويمكن تسميته رواية قصيرة ، أو حتى قصة قصيرة طويلة مثل العمل الأدبى الذى أسماه كرين « الوحش » . فقد قسم المؤلف « ماجى » إلى عدد من الفصول القصيرة التى لا تهدف إلى الاعتماد على التطور العادى للسرد . فإذا ما قارناها مثلا برواية لجيمس فينيمور كوبر فإنها تكشف لنا أن كرين يعتمد فى عمله على الومضات أو اللمحات . وعندما قام فرانك نوريس – معاصر كرين – بعرض « ماجى » فى مقال له لاحظ أنها تبدو معتمدة تماماً على منهج المصور الفوتوغرافى الذى يعمل فى الظلام . فإن « ماجى » تكشف عن نفسها فى تتابع من الصور المختصرة والمضاءة بحدة : إنها تتبع منهج هنرى جيمس الذى اشتهر « بالمناظر » و « الصور » : فبدلا من التطور السردى تقدم ومضات كرين « الصور » التى قصد جيمس بها تصوير الزاوية التى تنقل أو توحى بالجو والظروف والأحوال والخلفية وربما الرموز . وإن كان كرين لم يبح لنفسه استخدام هذا المنهج إلى آخر مداه فإنه كتب « المناظر » كما نجد فى المسرحية حيث الناس يتبادلون الحوار أو يمثلون مجسدين شيئاً حاضراً بالفعل .

يصور الفصل الأول جيمى جونسون الصغير وهو يلعب دور ملك التل فوق كومة من الأحجار وسط الأزقة والحوارى ، إنه يحارب من أجل شرف « حارة الروم » ضد الصبية القادمين من « طريق الشيطان » فهو يقاتل ويخسر ويتلقى الضربات التى تقهره تماماً ، وهذا يدل على المفهوم الذى يسرى من خلال أعمال ستيفن كرين والذى يؤكد أن جوهر الوضع الإنسانى حاله حرب ! عندئذ يدخل (بيت) الذى يفض العراك وينقذ جيمى ، ثم يدخل أبو جيمى الذى يأخذه إلى المنزل وهو يصب عليه لعناته ، ثم يحملنا الفصل الثانى إلى المساكن الشعبية الجماعية فى بقعة مزدحمة مرعبة تفوح منها الروائح الكريهة ، حيث يقطن آل جونسون . ثم

تدخل ماجى بصفتها الأخت الصغيرة والطفل تومى بصفته الأخ ، ثم الأم المفترسة التى تحمل اسم « مارى » على سبيل التهكم المرعب . وفى الحال نواجه بعراك عائلى يتحطم فيه الأثاث وتتطاير فيه اللعنات الجارحة ، مما يمثل رعباً يطغى على الأطفال !

فى الفصل الثالث تدخل « المرأة العجوز » المشوهة الوضيعة بصفتها جارتهم فى المساكن . أما الأب الذى لم نعرف له اسماً سوى مجرد « جونسون العجوز » فيخرج لقضاء وقت مرح ، لكن هذا يؤدى إلى معركة عائلية تصر عليها مارى وتكسبها بالفعل . وهكذا فى ثلاث ومضات رأينا البيئة المحيطة . وكأى شىء آخر فإن « ماجى » تعد دراسة إيكولوجية . ومن الناحية العلمية فإن الدراسة الإيكولوجية هى التى تهتم بأحوال البيئة ، وبالعلاقة الكلية بين الوحدة البيئية وبين الوضع العام المحيط بها . لقد أرسى كرين قواعد الموقف الإيكولوجى بالنسبة لحياة الأطفال فى الأزقة .

فى الفصل الرابع تصبح الأحداث أكثر إيجازاً . وقد ظن هنرى جيمس أنه من المفيد أن يتكلم عن الرواية كما لو كان يتكلم عن الرسم أو التصوير ، وكان يحلو له إظهار ضرورة الإيجاز فى وصف المناظر والزوايا فى بعض الأحيان . وفى « ماجى » هناك قدر كبير من ضغط العنصر الزمنى ، وهو ما يعد مثيراً جداً من الناحية الفنية : ففى فقرة قصيرة يموت الطفل تومى ويدفن فى حين يحمل الزهرة التى سرقتها ماجى من بائع الفاكهة الإيطالى . ثم تأتى دراسة لجيمى وللأسلوب الذى يشب به عن الطوق ويصبح شاباً ذا ابتسامة مزمنة فى اشمئزازها على حد قول كرين .

يبدأ الفصل الخامس بأكبر جملة مثيرة للحيرة والتعقيد فى الكتاب : فعندما كبرت ماجى أصبحت فتاة جميلة « كزهرة ترعرعت فى بركة طينية آسنة » وهذا كما يمكن جيمس أن يسميه – يشتمل على « المعطية الهندسية » أو « البديهية الرياضية » لكرين . هذا على افتراض أن جيمس استعار هندسة المسطحات حيث تبدأ كل مشكلة « بمعطية » : فالكاتب أيضاً يتحتم عليه أن يبدأ « بمعطية » يجب ألا نفترض النظر وراءها ، وهذا يدل على إدراك سليم . إن المعطية فى « هاملت » تكمن فى عودة هاملت إلى بيته من ويتنبرج ، ولا يفيدنا أن نستفسر عن دلالة ويتنبرج بالنسبة لهاملت أو علاقاته هناك مع روزنكراتس أو جيلدنستيرن . وقد أخذ كثير من هذا اللغو الذى لا معنى له على سبيل الدراسة الأدبية التى كتبت عن قضايا مثل هذه فى حين أنها لا تعد قضايا على الإطلاق . فالمعطية الحقيقية تبرز مع هاملت فى الموقف الذى تبدأ

فيه المسرحية .

والمعطية التى فى « ماجى » تكمن فى « ترعرع ماجى كزهرة فى البركة الطينية الآسنة » على سبيل تحدى حارة الروم . وقد أثار النقاد الشكوك عن احتمال أنه من الممكن لزهرة أن تترعرع فى بركة طينية آسنة ! ولسنا متيقنين مما سيقوله عالم الاجتماع الخبير فى هذا الشأن : هل من الممكن أن تتفتح فتاة جميلة بريئة فى حارة الروم وفى بيت آل جونسون ؟ وبصرف النظر عن هذه الشكوك فمازالت هناك « معطية » كرين ، فقد تفتحت ماجى بالفعل ، وأجبرت على الذهاب للعمل فى ورشة يديرها أخوها جيمس الذى شب عن الطوق ، ورشة لا يعرف العمل فيها سوى العرق المتصبب . قال لها أخوها ملاحظة لها دلالتها : « ليس أمامك سوى أمر من اثنين : إما أن تذهبى إلى الجحيم أو تذهبى إلى العمل ! » والنتيجة أن تذهب ماجى إلى العمل . وفى الفصل نفسه يقدم كرين دراسة لتدهور حالة مارى بحيث يبدو ظهور (بيت) مرة أخرى فى نهاية الفصل مشحوناً بالسخرية والتهكم ، وهو الإنسان الذى وجدت فيه ماجى سحراً أعجبت به !

يبدأ الفصل السادس بحديث مميز تماماً لشخصية (بيت) عندما يقول : « ماجى ، إنى لا أستطيع الابتعاد عنك وعدم التمتع بالنظر إليك ! » إنه جالاهاد حقيقى بكل ما يحمله من أخلاق فرسان المائدة المستديرة . لذلك فإن (بيت) يعيش على الخيالات الرائعة التى تتركها ماجى فى نفسه . وأوهامها وأطيافها تتناقض هى وبؤس المنزل وشقاء الورشة . وتبدأ لأول مرة فى النظر إلى نفسها كامرأة ، أى تبدأ فى العناية بمظهرها والتأنق فى ملبسها .

ويقدم الفصلان السابع والثامن ماجى إلى العالم فى تتابع رائع من الصور الأخاذة . إن العالم ، ذلك العالم المدهش الذى يقدم (بيت) ماجى إليه – هو عالم المسارح والبارات حيث السكر والخشونة والضعة والبؤس والعواطف الفجة المسرفة التى تؤخذ على محمل التسلية !

ويصل الفصل التاسع إلى الأزمة المحورية فى الكتاب : نرى مارى جونسون وقد ساءت سمعتها فى سلسلة من الانطلاقات التى لارابط لها فى بعض الأماكن العامة ، وتدخل مع جيمى فى عراك جسدى ، لكنها تخسر كل شىء ؛ إذ إنها لا تجد حتى من تتشاجر هى وهو بعد موته ! وفى قمة إحساسها بالقهر بكل ما يتبعه من رعب تقول لماجى : « فلتذهبى الى الجحيم ! لعنة الله عليك . ! اخرجى من هنا ! » فى حين أن (بيت) كان مستعدًّا ليقودها خارجاً .

وفى الفصل التالى يأتى المحور الثانى للرواية مؤكداً فكرتها الأساس القائمة على التهكم

والسخرية . وربما كان الشيء الذى لم يقدر على الإطلاق تقديراً كافيا فى « ماجى » هو العمق الذى تميز به التهكم فيها : فالمرأة العجوز الوضيعة تقابل جيمى عند عودته إلى المنزل وتخبره بمنتهى التشفى أن أخته تحطمت تماماً وذهبت فعلا إلى الجحيم ، فينقل جيمى هذا الكلام إلى مارى التى تبرز استجابتها للخبر الجانب الآخر من شخصيتها . فمن ملامحها السكر وإثارة الاضطراب والعنف ، أما الملمح الآخر فيتمثل فى غرامها وموهبتها للميلودراما الشخصية المسرفة فى العاطفية ، إنها تنغمس فى تصوير يرضى مزاجها للأم الضحية التى هرب منها ابنها العاق الناكر للجميل لكى يتحطم ويحطمها ومن ثم فإن هذا يؤدى إلى منظر من أرق مناظر كرين فى الفصل الحادى عشر حيث جيمى يفعل الشيء الوحيد الذى يستطيع التفكير فيه : أى يصطحب صديقاً ويذهب إلى الحانة حيث (بيت) يقوم على خدمة زبائن البار وذلك لكى يوسعه ضرباً . وهناك تقع معركة فى البار لا تشبه إطلاقاً تلك التى نراها فى التليفزيون إذ إنها واقعية أكثر من اللازم .

فى الفصل الثانى عشر يظهر بيت وماجى معاً ، فيبدو بيت سيداً مطلقاً لنفسه ولماجى التى أصبحت ذليلة ومعتمدة تماماً عليه ، ثم تأخذ مارى جونسون سمت الاستقامة وحب الحق وتتكلم بتلقائية اللحظة مع جيمى محاولة التفكير فى طريقة للخروج من هذا المأزق ، إنه يتساءل هل كان يتحتم عليهم إعادة ماجى إلى المنزل ؟ هل يتحتم عليهم استيعاب الموقف واستعادتها ؟ لكن الأم تقف فى طريق مثل هذه الأفكار المنحطة الشريرة : إنها وحش ، إن ماجى لا تستحق أن تعامل على هذا المستوى الإنسانى . وأخيراً بعد مرور ثلاثة أسابيع من تحطيم ماجى فإنها تفقد (بيت) الذى ينقاد فى البار خلف عاهرة ذكية وصلبة وجذابة وخبيثة وصغيرة الحجم تدعى نيللى . وبمنتهى البساطة يغادر (بيت) الحانة تاركاً ماجى خلفه فى ذهول !

وفى الفصل التالى نجد منظراً مثيراً جداً يندس بين المواقف فجأة عندما يجد جيمى نفسه مطارداً فى الشارع من فتاة تدعى هاتى سبق له أن أنشأ معها علاقة غرامية ثم هجرها . وفى مواجهة إغرائها قال جيمى : « فلتذهبى إلى الجحيم ! » وهكذا عندما تضطر ماجى إلى العودة إلى المنزل ، فإن ظهورها يمنح الأم ببساطة فرصة القيام بتمثيل ميلو درامى بالغ فى سفالته الجارحة ، وعندما تلجأ ماجى إلى جيمى فإنه يتخذ الخط الأخلاقى نفسه وبذلك لا يعد لها ما تفعله سوى أن تدير ظهرها وترحل ! وهكذا تذهب إلى (بيت) فى الفصل التالى حيث يرابط فى الحانة مما يثير اضطرابه وحيرته . لقد تسببت فى تورطه بالفعل فى معركة من أجلها فى الحانة

التى يعمل بها وهو يخشى أن يراها صاحب الحانة وعندما تسأل : « لكن إلى أين أذهب ؟ » فإننا نعرف بماذا سيجيب : « نعم اذهبى إلى الجحيم ! » وفى نهاية الفصل تهيم على وجهها فى المدينة حائرة لا تدرى ماذا تفعل ؟ وأين تذهب ؟ تحاول أن تتحدث إلى رجل مهذب فى غاية الاحترام وممن يعملون فى سلك الكهنوت . وبمجرد أن يلقى عليها أول نظرة فإن الأسقف ينقذ إحساسه باحترام نفسه بالقفز بعيداً بأسلوب مدهش . ويتساءل الراوى : كيف له أن يعرف أن هنا نفسا فى حاجة إلى الإنقاذ ؟

عندئذ يأتى منظر من أروع المناظر ، بل إنه ليس منظراً بمعنى الكلمة فهو عملية تطور مكثفة فى الفصل السابع عشر . يجسد لنا كرين منظراً لامرأة الشارع بأسلوب سينمائى كاسح ، فلا نتعرف عليها بصفتها ماجى ، فقد بدأت فى ارتداء الملابس الأنيقة ، والسير بكعبيها العاليتين فى إيقاع مسموع فى أكثر أجزاء نيويورك لمعاناً وبريقاً . تسير الهوينى ملقية شباك إغرائها بأسلوب واحد لا يتغير فى ظاهره وإن كان يكثف فى داخله سنوات عدة من السير هابطة إلى أسفل وأسفل وأسفل عبر مستويات المدينة التى تمثل أيضا فى أحد معانيها طبقات الجحيم . تستمر فى الانحدار من طبقة إلى أخرى وتعاشر من الزبائن من لا يقف نفورها منه عند أى حد حتى ينتهى بها الطريق إلى النهر .

فى الفصل الأخير يعود جيمى إلى البيت فيجد أمه جالسة هناك تملأ فمها بالخبز . يقول لها : « حسنا لقد ماتت ماجى ! » فتتساءل أمه : « ماذا ؟ هل ماتت ماجى ؟ » وعندما تنتهى مارى من تناول قهوتها ، تشرع فى البكاء . إنها تمثل منظراً عنيفاً من العواطف المتطرفة يدور حول ماجى عندما كانت طفلة مرتدية حذاءها الصغير المشغول بالإبرة ويفد الجيران للمشاركة فى الميلودراما حتى نصل إلى النهاية التى تحجل فى طياتها تهكماً أخيراً فى غاية الرعب ، فتقول مارى : « نعم سأسامحها ! سأسامحها ! » كما لو كانت تؤدى بطريقة ما معروفاً يوحى بالتضحية من أجل ماجى الميتة .

والآن ما الذى نعرفه حقاً عن هذا الكتاب ؟ إنها أشياء كثيرة مثيرة بحيث نخجل من عدم معرفة المزيد . فإذا أردنا استعادة التجربة كلها بدون التساؤل عن أى جزء فيها – فإنه يمكن افتراض وجود أربع مراحل فى تشكيل « ماجى » وتأليفها . قال فرانك نوكسون : إن كرين بدأ فى كتابتها عندما كان طالباً فى جامعة سيراكيوز فى ربيع عام ١٨٩١ . وبعد ترکه للكلية من المحتمل أن يكون قد حاول إعادة صياغتها مرة أخرى . وفى عام ١٨٩٢ كان قد انتهى من

عمل نسخة جديدة – كما أخبر صديقاً له – وذلك قبل عيد الميلاد بأيام قلائل . وأخيراً حمل النسخة الخطية إلى صاحب مطبعة غشاش نشرها فى السر تحت عنوان « ماجى : فتاة الشوارع » وقد ظهر المؤلف على الغلاف باسم « جونستون سميث » ورفع كرين قضية فى ١٩ من يناير ١٨٩٣ مطالباً بحقوق النشر ، وهذا التاريخ هو الشىء الوحيد الذى أمكننا التيقن منه فى الموضوع برمته .

إن تاريخ « ماجى » مثير للحسرات فقد كتب كرين كتاباً بمثابة علامة مميزة من علامات الطريق الأدبى ؛ إنه عمل فنى بمعنى الكلمة لم يرغب أحد فى نشره . وكان أحد أصدقاء عائلته ريتشارد واطسون جيلدر يعمل رئيساً لتحرير مجلة مشهورة هى مجلة « القرن » ، فحمل كرين النسخة الخطية من « ماجى » إلى جيلدر الذى قرأها وقال : « آسف لا أستطيع أن أنشرها ! » وعندما سأله كرين : « لماذا يا مستر جيلدر ؟ » أجابه جيلدر : « إنها قاسية أكثر من اللازم » فقال كرين : « تقصد أنها أمينة أكثر من اللازم . أليس كذلك ؟ » فرد جيلدر : « بلى ، ربما أقصد هذا » .

توطدت أواصر الصداقة بين كرين وصديق جديد عندما كان يمارس لعبة البيزبول فى حديقة آزبرى ذات صيف . فقد جاء هاملين جارلاند ليحاضر فى الحركة الواقعية الجديدة ، وكان كرين قد كتب تقريراً صحفياً ناضجاً وشاملا أثر كثيراً فى جارلاند . وعندما صدرت «ماجى » لم يلتفت إليها أحد بالطبع . وقد اعترف كرين بعد ذلك أنه ظن أنه بمجرد طبع كتابه فسيصبح مشهوراً مثل روايات ويفرلى وذلك قبل أن يعرف أحد أن سكوت هو مؤلفها . وقال كرين إنه عندئذ سيقفز من فوق العقلة مثل لاعب الأكروبات لكى يظهر ويقول : « فلينتبه الجميع ! فأنا جونستون سميث » لكن الجمهور لم يعره أى التفات ! وعلى أية حال فقد كان جارلاند راغباً فى إرسال نسخة منها إلى صديقه هاولز . ووقع هاولز فى المصيدة وبصفته أكثر النقاد تأثيراً ونفوذا فى عصره بدأ فى إشهار ستيفن كرين ، لكن شهرة كرين خرجت من يدى هاولز بين عشية وضحاها بعد الضجة العالمية المثيرة التى أحدثتها « وسام الشجاعة الأحمر » . وهكذا كانت دار آبلتون للنشر سعيدة بنشر « ماجى : فتاة الشوارع » بصورة منتظمة بعد أن روجعت المراجعة المناسبة .

يؤدى بنا هذا التاريخ إلى التساؤل عن أى من نسخ « ماجى » هى التى نقرؤها الآن ؟ يجب أن نعلم أن هناك كتابين : نسخة طبق الأصل من الطبعة الأولى من « ماجى » عام

١٨٩٣ والتى حققها الأستاذ جوزيف كاتز ، وكتاب يسمى (« ماجى » رواية ستيفن كرين : النص والسياق) حققها الأستاذ موريس باسان ، وهذا الكتاب يمدنا بعدد من الوثائق الهامة والمفيدة . وقد التزم كل من كاتز وباسان بالفكرة التى تؤكد أن « ماجى » التى نطالعها ليست النسخة المعروفة بصفة عامة والتى كانت النص الذى نشر فى طبعة عام ١٨٩٦ . وهما يعتقدان أنه يتحتم علينا أن نقرأ « ماجى » كما كتبها كرين لأول مرة عندما نبعت من إدراكه للأسلوب التى يجب أن تكون عليه . ولحسن الحظ فقد نشر هذا النص فى الطبعة المعتمدة بإشراف الأستاذ فريدسون باورز . وفى الأجزاء الأولى من طبعة فرجينيا يمكننا الحصول على نص معتمد نعتمد عليه . فقد اعتمد أساساً على طبعة عام ١٨٩٣ ، وبذلك فإنه بصفة عامة تكون طبعة عام ١٨٩٦ قد اختفت ببساطة ، ولا شك أن هذا الاختفاء قد أرضى الجميع .

وفيما يختص بطبعة « ماجى » عام ١٨٩٣ فإنه يصبح من الضرورى تناول قضية اللغة . عندما كان هاولز مستمراً فى محاولته لإشهار كرين تعوَّد القول بأن السيد كرين كتب كتاباً رائعاً عن حياة العامة فى أمريكا ، عن الحياة فى الأزقة والطبقات السفلى . ولعل هذا أفضل من أى شىء آخر كتب فى هذا الصدد ، لكن المضمون كان من الجهامة بحيث أصبح من العسير أن يصبح مضموناً شعبيًّا محبوباً ، ومن المحتمل أن تكون اللغة قد منعته من ولوج عتبة المثقفين. فإذا ألقينا بنظرة على لغة النسخة التى أصدرها هاولز لكرين ، وهى اللغة التى استمدها كرين من أبناء جيله – فربما أمكننا أن نعد : « ما هذا بحق الجحيم ؟ » اثنتين وثلاثين مرة ، و « أين بحق الجحيم ؟ » مرتين ، و « اذهب إلى الجحيم » خمس عشرة مرة ! وهناك نحو خمسين استعمالا آخر لكلمة « الجحيم » بالإضافة إلى أربع وستين لعنة ، منها سبعة استعمالات أو حوالى ذلك لاسم الله الذى ينطق ويكتب باللهجة المحلية «Gawd»وهكذا كان الأمر كله . فهناك إشارات مجردة عدة للقسم واللعن والسباب .

ويستطيع المرء أن يستمع الآن (كما كان حينئذ) بمنتهى السهولة فى أية مدينة أمريكية إلى ألفاظ جارحة أكثر تنوعاً من هذا . ولم يكن الأمر أن كرين لم يستخدمها جيداً ؛ إذ إن أى قارئ حساس لا يستطيع التغاضى عن الاستخدام التهكمى المرعب المتكرر « اذهب إلى الجحيم ! » وهى الجملة التى تكررت فى بناء « ماجى » لتأكيد مثل هذا الاستخدام .

ماذا كانت وجهة نظر كرين ؟ إن وجهة النظر ليست رأياً بالضبط بل هى شىء ما يمكن أن يؤدى إلى رأى : فوجهة نظرنا هى المكان الذى نقف فيه لرؤية شىء ما وهى تحدد الطريقة

التى نرى بها ، وكانت وجهة نظر كرين ذات أهمية أساس .

هناك جزء تبقى لدينا من خطاب كتبه كرين إلى آنسة تدعى كاترين هاريس بعد نشر « ماجى » عام ١٨٩٦ . ولابد أنها كانت قد كتبت إليه خطاباً بخصوص « ماجى » شكرها عليه . عندئذ قال :

«كانت السيدة هاولز على حق عندما أخبرتك أننى قضيت وقتا طويلا على الجانب الشرقى ، وأننى لا أعلم شيئاً عن البعثات التبشيرية والإرساليات وربما لا يشكل هذا بالنسبة لك إجابة مفيدة طالما أنك علمت أننى لم أكن على وئام تام مع المسيحية كما أراها فى المدينة المحيطة بى . إننى لا أعتقد أنه يمكن عمل الكثير فيما يتصل بالأزقة والحوارى القذرة المنحطة طالما أن الفقراء مازالوا سادرين فى حالتهم الراهنة التى تعبر عن كبريائهم الزائف . إن الإنسان الذى يظن نفسه أسمى من الآخرين لمجرد أنه متعطل عن العمل ، وعن الإحساس بالكرامة ، ولا يرتدى ملابس نظيفة ، هذا الإنسان يتساوى فى غروره الزائف الكريه وليليان راسل . فى قصة لى بعنوان : « تجربة فى البؤس » حاولت أن أوضح أن الأساس الذى نهضت عليه حياة الأزقة والحوارى نوع من الجبن . ربما أقصد بهذا نقصان الطموح أو أن الإنسان هناك رضى بأن يلقى على الأرض لكى يلعق فتات الآخرين !

أما الإرساليات التى أقيمت من أجل الأطفال فتلك قضية أخرى ، وإذا تمكنت من جعل السيد روكفلر أن يمنحنى مائة عربة وبعض المال فسوف أحمل كل الأطفال إلى عالم وردى حيث تلعق الأبقار أنوفهم ، ولن تراهم أسرهم مرة أخرى !

إن صديقى الطيب إدوارد تاونسند – وبالمناسبة هل قرأت كتابه « ابنة المساكن الجماعية » ؟ – له رأى آخر فى مسألة الأزقة والحوارى الفقيرة ، ومن المؤكد أنه رأى أفضل من رأيى ! إننى ليس لى هدف آخر من تأليف « ماجى » سوى إظهار الناس للناس كما يبدون لى ، فإذا كان هذا شيئاً شريراً فلنستخدمه بأفضل الوسائل ! » .

وكان التحدى – من العناصر الجوهرية عند كرين ، وربما كان أحد الأسباب التى أدت إلى هذا التحدى أنه أطلق عليه ذلك اللقب الذى شاع فى الكليات عن أمثاله « ابن الواعظ ! » أو « طفل الواعظ ! » ؛ فقد كان ابنا لكاهن من طائفة الميثوديست المسيحية وهذا فى ذاته بمثابة مصير غريب حكم به عليه . وغالبا ما كان أمثال هؤلاء الناس موهوبين ، لكن سنى دراستهم كانت زاخرة بالمتاعب على أقل تقدير . وأحد أسباب هذه المتاعب أنهم

غالبا ما اعتملت الثورة العارمة فى باطنهم ضد القهر الذى عانوا منه فى سنى الطفولة ، ليس داخل العائلة فقط ، بل وسط التجمعات والمجتمعات بل كل العالم ! ويستطيع المرء أن يرى اهتماماً عميقاً فى ستيفن كرين بالأفكار التى توحى بأنه غير مؤمن ، وخاصة فيما يتصل ببعض الأفكار المعينة النابعة من جوهر المسيحية ، لكن هذا بالطبع كان مختلفاً اختلافاً جذريا عن المسيحية ؛ كما يراها فى المدينة التى تحيط به ؛ فقد اعتملت الثورة فى داخل ستيفن كرين من جراء الادعاء والرياء والغباء والمسيحية الرسمية التى لا تمت للمسيحية الحقيقية بصلة بل هى مضادة لها تماما !

ومن ناحية أخرى فقد تمسك كرين فى خطابه إلى كاترين هاريس بوجهة نظر تتناقض بحدة والمسيحية ، تلك كانت وجهة نظر الرجل الدنيوى الذى يؤمن بالعائد من المجهود والمعاناة الأساس فى حياته ، يؤمن بدفع الثمن ، ويقف منتظراً الحصول على قيمة أى شىء ، ويطور أى مثل أعلى ، ويشرع فى محاولته مباشرة حتى لو كان مدركاً للخسارة التى ستحيق به ! لكن مازال هناك شىء آخر لاحظه الناس فى ستيفن كرين ، ذلك هو عاطفته الحانية على الأطفال والنساء والحيوانات والفئات الكادحة . وإذا نظرت فى بعض الأحيان إلى عينة من خط يد كرين فستجد أنه يبلغ الكمال فى جماله ، وذلك يرجع إلى كرين عندما عمل مراسلا صحفياً فى صدر حياته ؛ فقد اكتشف أن عمال المطبعة كانوا يؤدون عملهم بالمقطوعية : أى أنهم كانوا يحصلون على أجرهم طبقا لعدد السطور التى يقومون بجمعها ! فإذا كان عليهم قراءة مخطوط ردىء فإنه سيعوقهم ، لكن المخطوط المنسق النظيف يجعلهم يحصلون على أكبر قدر ممكن من العائد الاقتصادى . وقد بلغ كرين الكمال فى نظامه الخالى من الأخطاء . هذا الإحساس الملح بتطبيق مثل أعلى ، وهو ما يظن المرء أنه الصواب وأنه الحقيقة على الرغم من أنه ربما ثبت أنه ليس حقيقيا على الإطلاق – هذا الإحساس كان جوهريا بالنسبة لكرين . وبمعنى آخر كان افتقاره المطلق إلى حب الذات الأنانية قد تبارى هو ونزعته المضادة للتطهرية (البيوريتانية) ، وهى النزعة التى حملت فى طياتها التعاطف المطلق مع آلام الآخرين .

ولعل الميزة العظيمة التى يحصل عليها المرء من التدريس أنه يستمر فى التعلم وخاصة من تلاميذه . وكان علىّ أن أتخلى عن أحد آرائى فيما يختص « بماجى » بحكم أننى كتبت كتاباً صغيراً عن ستيفن كرين . وما قلته فى هذا الكتاب أن الفصول التى شهدت ماجى وهى تسير إلى حتفها تعد نموذجاً كلاسيكياً للتجريب ؛ لأنه يظهر كرين وهو يقوم بعملية متعددة الجوانب

تجمع فى داخلها ضغط عنصر التتابع الزمنى فى دراما رمزية .

وعلى أية حال فقد أيدت فى نقاشى أن هذا كان بمثابة هنة فى الرواية ؛ لأنه سريع وقصير أكثر من اللازم . إن افتراضى هو أن ماجى هى موضوع الرواية ، لكننى منذ ذلك الوقت أدركت أننى كنت مخطئاً. إنها ليست رواية عن ماجى كشخص ؛ إنها فى الحقيقة أقل شخصية قام المؤلف بدراستها . فهى نادراً ما تتكلم أو تتحرك إذْ إن نشاطاتها وأفكارها ومشاعرها اختزلت وأوجزت وكثفت وتم وصفها لنا ،على حين أن رحى الحدث الدرامى دائرة . أما الأشخاص الذين تم رسمهم بدقة فهم مارى المفترسة ثم جيمى وبعده بيت . فالأسلوب الذى يتكلم به بيت ويتصرف يجعله نموذجاً كاملاً لفتى الأزقة الخشن ، وهو الذى شكل الجبن جوهر حياته !

لقد قام كرين أمامنا بدراسة للبيئة ، لكى نرى أنه من المستحيل أن نتصور أن ماجى قد ذهبت حقاً إلى الجحيم . إن التعبير الصحيح الذى ينطبق على ماجى هو ذلك الذى التقطه روبرت فروست من كريستوفر مارلو . فإذا كانت ماجى تملك الوعى الكافى فإن الحياة حولها تمنحها الحق فى أن تقول : « ليس هذا بجحيم ، ولن أخرج منه أيضاً » وكان معنى أن تخرج من الجحيم أن تخرج من تلك الحياة .

هكذا تضيف الرواية لمسة تهكمية فعالة إلى الديباجة المشهورة التى كتبها كرين على الغلاف الورقى لطبعة عام ١٨٩٣ من « ماجى » ، وهى الطبعة التى قدمها إلى هاملين جارلاند :

« إنه من المحتم أن يصدمك هذا الكتاب إلى حد كبير ، لكن أرجوك فى أن تستمر بكل الشجاعة الممكنة حتى النهاية . فهو يحاول إظهار البيئة كشىء رهيب فى هذا العالم ، شىءٍ يشكل حياة الناس بصرف النظر عن أى اعتبار . فإذا استطاع المرء إثبات تلك النظرية فإن عليه أن يوجد مكاناً فى السماء لكل أنواع النفوس (وخاصة فتيات الشوارع اللاتى حكم عليهن بهذا المصير) وهن اللاتى لا يتوقع لهن كثير من الناس الممتازين أن يكن هناك على سبيل التأكيد » .

إن الأهمية الحالية للكتاب – بعيداً عن أهميته التاريخية أو الفنية – وهى التى تجعل ماجى » حية وحيوية حتى الآن – تكمن فى دلالته الأخلاقية . كانت هناك لحظة فى الحياة الأمريكية عندما ظننا أنه لن تكون هناك أزقة ، وعندما كنا ننظر فى الاتجاه الآخر حدث شىء رهيب ! إنه قد يبدو سخيفاً لكنه يصف الأسلوب الذى اتبعه أناس كثيرون فى تشكيل وعيهم

فيما يختص بما أسموه «أمريكا الأخرى» : فبينما كنا ننظر فى الاتجاه الآخر وفجأة (وبالطبع لم يكن هذا فجأة بل إنها كذبة نضحك بها على أنفسنا) – وجدنا أن الأزقة مازالت قابعة هنا ! بل أكثر رعباً للناس الذين يعيشون فيها أكثر من ذى قبل ! فماذا ستكون عليه نظرتنا تجاه هؤلاء الناس ؟ كان ستيفن كرين يهدف إلى إشعارنا بالعاطفة والحنو على هؤلاء الناس بكشفه لنا كم هى غير محتملة عناصر التهكم المرير النابعة من الادعاء والرياء ، ومن الغباء والأنانية المستحكمة فى الرجال والنساء الذين لم يروا والذين لن يروا حقيقة التجربة الإنسانية الراهنة ! لذلك تعد «ماجى» كتاباً عظيماً ، وربما أكثر عظمة الآن من ذى قبل ، وذلك أحد الأشياء التى تحدث للكتب العظيمة .